مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية
المجلد 18 العدد 3 (السداسي الثاني 2026)
ص. 819 – 848

مظاهر التفسير الهدائي
في تفسير «نفحات الرحمان» للشيخ محمد سعيد كعباش

Right Guidance-Oriented Manifestations in Sheikh Muhammad Said Ka'besh's "Nafahat al-Rahman" Exegesis

عمر حكيمي*
جامعة غرداية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية (الجزائر)
hakimi.omar@univ-ghardaia.edu.dz

تاريخ الارسال: 2026/06/20 تاريخ القبول: 2026/09/22 تاريخ النشر: 2026/09/28

ملخص:

تنادى العلماء في العصر الحديث بدء بالأفغاني فالشيخ محمد عبده إلى إصلاح الأمة بالقرآن، وأكَّدوا أن المقصد الأعلى للقرآن إرشاد الناس إلى ما يحقِّق لهم الهداية والسعادة في الدنيا والآخرة.؛ وذلك لحاجة الأمة إلى تفاسير تتوجه عنايتها رأسا إلى هدايات القرآن، والتمسك بحبله المتين.

واكب علماء الجزائر منحى التجديد في التفسير، وظل الحس الهدائي حاضرا في دروس التفسير؛ فكان لها أثرها المبارك في حفظ الهوية الدينية والوطنية بخاصة أيام الاستعمار الفرنسي.

جاءت هذه الدراسة لتقف عند مظاهر التفسير الهدائي عند الشيخ محمد سعيد كعباش أحد علماء التفسير بالجزائر من خلال كتابه "نفحات الرحمان في رياض القرآن، تناولنا في الجانب النظري التأسيس المفاهيمي للتفسير الهدائي، وتطرقنا في الجانب التطبيقي إلى مظاهر التفسير الهدائي في كتابه من خلال نماذج.

الكلمات المفتاحية: 1 التفسير؛ 2 مظاهر؛ 3 الهدائية؛ 4 كعباش؛ 5 نفحات الرحمن.

Abstract:

In the modern era, scholars—starting with Al-Afghani and Sheikh Muhammad Abduh—called for the reform of the Ummah with the Quran. They stressed on the decisive object of the Quran is to guide people toward what fulfils their right-guidance and happiness in this world and the Hereafter. This is attributable to the Ummah's urgent need for exegeses (tafsir) that focus mostly on the Quran's guidance and adherence to its firm and inflexible cord of Divine Guidance.

Scholars in Algeria kept pace with this revival tendency of exegesis, and the sense of "right guidance-orientedness" ('al-hada'iyyah') remained present in their Quran exegesis. This had a sacred impact on religious and national identity preservation, especially during the French colonisation.

This study aims to examine the manifestations of right guidance-oriented exegesis in the work of Sheikh Muhammad Said Ka'besh; one of the prominent scholars of 'tafsir' in Algeria, through his book 'Nafahat al-Rahman fi Riyad al-Quran' ("Breezes of the Most Merciful in the Gardens of the Quran"). The theoretical section deals with the conceptual foundations of right guidance-oriented exegesis, while the practical section explores the manifestations of this approach in his book through selected examples.

Keywords: 1 Exegesis ('Tafsir'); 2 Manifestations; 3 Right Guidance-Oriented ('Al-Hada'iyyah'); 4 Ka'besh; 5'Nafahat al-Rahman'.

* عمر حكيمي

1. مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأُسلِّم على النبي الأمين، وبعد

أنزل الله ﷻ وحيا كريما هو خير تِبيان وموعظة، وأودَعَ فيه سبحانه من الأسرار، وشرع فيه من الآداب والأحكام ما يُحقِّق صنوف الهداية، ويحفِّز الخلق نحو الطاعة يقول تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ﴾ [يونس:57].

اشتغل العلماء -عبر تاريخ الإسلام- بتفسير القرآن والكشف عن معانيه، وإبراز مقاصده، وسلكوا في ذلك مناهج شتى، تجلَّت في كتب التفسير الكثيرة التي أسهمت في حفظ تديُّن الأمة وصلاحها.

عَرَفَ العصر الحديث اهتمام العلماء بمنحى التجديد في تفسير القرآن الكريم، مرتكزهم الدعوة إلى تيسير فهمه للناس، واستلهام التوجيه والتربية من آياته الكريمة، وربط آياته بسنن الاجتماع ونُظُم العمران؛ بما يستجيب لحاجات المجتمع المسلم ويعالج مشكلاته على ضوء القرآن.

ومن علماء الجزائر المعاصرين الذين كانت لهم إسهامات مباركة في حركة التفسير في العصر الحديث الشيخ محمد سعيد كعباش أحد علماء الإباضية بالجزائر من خلال تفسيره «نفحات الرحمان في رياض القرآن»، وغيرها من الدراسات القيمة في حقل الدراسات القرآنية.

تأتي هذه الورقة العلمية لتقف عند منحى الهدائية في التفسير، وتكشف عن مظاهر التفسير الهدائي عند الشيخ كعباش من خلال تفسيره «نفحات الرحمان»، وأثر ذلك في ترسيخ الإيمان وحفظ والقيم وتحصين المجتمع.

تنطلق هذه الورقة البحثية من الإشكالية الآتية:

- ما مفهوم التفسير الهدائي؟ وما مظاهره في تفسير «نفحات الرحمان» للشيخ محمد سعيد كعباش؟

الجواب عن هذه الإشكالية تضمَّنته الخطة الآتية: تناولنا في **المطلب الأول** تعريف التفسير الهدائي، ثم وقفنا في **المطلب الثاني** عند سيرة الشيخ محمد سعيد كعباش وتفسيره «نفحات الرحمان»، مع الإشارة إلى ملمح الهدائية في كتابه.

يأتي بعد ذلك **المطلب الثالث** الذي أوردنا فيه مظاهر التفسير الهدائي في تفسير «نفحات الرحمان» كنماذج.

ثم خَتمنا الورقة البحثية **بخاتمة**؛ أوردنا فيها أبرز النتائج، ثم ذيَّلناها **بقائمة المصادر والمراجع**.

2. التأسيس المفاهيمي للتفسير الهدائي:

1.2 التعريف بلفظتي التفسير والهدى:

1.1.2 التفسير:

لغة: يراد به الكشف والبيان، جاء في معجم مقاييس اللغة: «الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه»[1]، يقول تعالى ﴿وَلاَ يَاتُونَكَ بِمَثَلٍ اِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:33].

وأما اصطلاحا: فقلَّما يخلو كتاب من كتب التفسير وعلوم القرآن من ذكر تعريف للتفسير؛ نقتصر في هذا المقام على تعريفين يضبطان حَدَّ التفسير؛ فقد عرَّفه الزركشي في أحد تعريفيه بأنَّه «علمٌ يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه»[2]. كما عرَّفه الزرقاني بأنه: «علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية»[3].

2.1.2 الهدى:

ترد في معاجم اللغة على معنيين: الأول: التقدم للإرشاد، كأن تقول: هديته الطريق هداية، أي تقدَّمته لترشده، وهو هنا عكس الضلالة. وأما الثاني: بمعنى الهدية، يقال: أَهديتُ، أُهدِي إِهدَاءً.[4].

وقد أَجمَل الأصفهاني المعنيين بقوله: «الهداية دلالة بلطف، ومنه: الهديّة، وهوادي الوحش. أي: متقدّماتها الهادية لغيرها، وخصَّ ما كان دلالة بِهَدَيت، وما كان إعطاء بأهديت؛ نحو: أهديت الهديّة، وهديت إلى البيت»[5]

قال ابن عطية: «والهداية في اللغة الإرشاد، لكنها تتصرَّف على وجوه يُعبِّر عنها المفسِّرون بغير لفظ الإرشاد، وكلها إذا تؤمِّلت رجعت إلى الإرشاد»[1].

---

(1) أبو الحسين بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دط، دار الفكر، 1399هـ/1979م، (504/4). مادة "فسر".

(2) بدر الدين الزركشي. البرهان في علوم القرآن، تح: أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، مصر، 1376هـ/1957م، (13/1).

(3) محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن. ط3، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، دت، (3/2).

(4) ابن فارس. معجم مقاييس اللغة. (42/6). مادة. هدي.

(5) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تح: صفوان عدنان الداودي، ط1، دار القلم، الدار الشامية، دمشق-بيروت. 1412هـ. (835/1). مادة هدى.

وأما الهداية في اصطلاح الشرع فترد على معنيين:

- الأول: انشراح الصدر للطاعة والتوفيق لفعل الخير، وهي هداية منسوبة لله عزوجل، عرفها ابن عاشور بقوله: «الهداية هي مراد الله تعالى من الناس، وأنه لم يتركهم في ضلالهم، فمن اهتدى فبإرشاد الله ومن ضل فبإيثار الضال هوى نفسه على دلائل الإرشاد»[2].

ولما كان الإنسان هو المؤهَّل بأمر الخالق للخلافة، فإنه ينجذب بالفطرة إلى موجد الكون، ويتلمس طريقه إلى خالقه، وبما أن سنة الحياة مضت بصراع الحق والباطل والخير والشر، فلابد للمؤمن من طوق نجاة؛ لا يجده إلا في كنف ربه، يستنجده ويستهديه: اهدنا الصراط المستقيم[3].

يقول الشيخ كعباش: «ولا شكّ أن هذه الهداية لا يمنحها إلاّ الله مهما التمسها الإنسان بالوسائل المهيّأة له في حياته المادّية الظاهرة؛ لأنّها من مفاتيح الغيب التي لا يملكها إلا الله مقلّب القلوب، ومزكّي النفوس: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنَ اَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَن يَّشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:56]، ﴿وَمَن يُّومِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:11]»[4].

- وأما المعنى الثاني: فهو الهداية بالإرشاد والدعوة إلى طاعة الله[5]، وقد أثبته القرآن لأنبيائه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:73]، .كما أثبته للنبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:52]، يقول الشيخ كعباش: «هي هداية دعوة وتبليغ وإرشاد؛ سواء بما أوحى الله به من القرآن من قضايا الدين، أو بما يبيّن لهم من

(1) ابن عطية أبو محمد عبد الحق: المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان. 1422هـ، (73/1).

(2) ابن عاشور محمد الطاهر: التحرير والتنوير، دط. الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 هـ[(180/13).

(3) كعباش، محمد بن إبراهيم سعيد: نفحات الرحمان في رياض القرآن، دط، جمعية النهضة، غرداية- الجزائر، 1424-1436هـ/2003-2015م. (188/1).

(4) المصدر نفسه، (11/1).

(5) أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، 1407هـ (516/3). ناصر الدين البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، 1418هـ، (56/4).

سنته بجميع أنواعها»[1]، وقد سار الصحابة والعلماء على سَنَن النبي أخذا بأيدي الناس إلى ما يقربهم إلى الله تعالى، ويحقق رضاه، عُدَّتهم بيان هدايات القرآن وتفسيره.

2.2 التعريف التركيبي لمصطلح التفسير الهدائي:

قبل أن نصل إلى التعريف التركيبي للتفسير الهدائي، يحسن بنا أن نعود إلى أول من نحت هذا المنحى التفسيري وهو الشيخ محمد عبده، حيث نجده في مقدمة تفسير المنار يسوق تعريفا يراه الأوفق لمنهجه في التفسير فيقول:

«فعلم مما ذكرنا أن التفسير قسمان: أحدهما: ... وهو ما يقصد به حل الألفاظ وإعراب الجمل وبيان ما ترمي إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية ... وثانيهما: ذهاب المفسِّر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام، على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام، ليتحقَّق فيه معنى قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: 157] ونحوهما من الأوصاف، ... وهذا هو الغرض الأول الذي أرمى إليه في قراءة التفسير»[2].

تتابعت اهتمامات المفسرين بهذا المنحى الجديد في التفسير، مشرقا ومغربا، وغَلَبَ في دروس التفسير التركيز على جوانب الهدايات في آيات القرآن الكريم، يقول الشَّيخ بيُّوض : «وغرضنا من تفسير كلام الله تعالى إنَّما هو الاتِّعاظ والاعتبار، وإلا فالتَّفسير له وجوه كثيرة من حيث البلاغة والنحو والصرف والتأريخ، ولكنَّ الأصل هو تدبُّر كلام الله تعالى بالكيفية التي تؤثِّر على القلب القاسي حتى يلين، وعلى القلب المنحرف حتى يستقيم، وعلى القلب الموبوء حتى يعالَج، وعلى القلب المريض حتى يَصِحَّ»[3].

بَرَزَت محاولات الباحثين استلهاما من هذه الجهود التفسيرية المتتابعة في صياغة تعريف جامع للتفسير الهدائي، فقد عرَّفه السيد محمد علي أيازي بأنه «التفسير الإرشادي الذي يجعل هدفه الأعلى بيان ما أنزل الله؛ بتجلية هدايات القرآن وتعاليمه، حكم الله فيما شرع

(1) كعباش: نفحات الرحمان، (323/12).

(2) رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1990م. (مقدمة محمد عبده). (22/1).

(3) إبراهيم بيوض: في رحاب القرآن، ط2، جمعية التراث، القرارة - الجزائر، 1430هـ/2009م. (361/21).

للناس في القرآن، على وجه يجتذب الأرواح ويفتح القلوب، ويدفع النفوس إلى الاهتداء بهدى الله»[1].

وقريبا من التعريف السابق، نجد تعريف الباحثة مونية طراز حيث تعرف التفسير الهدائي بأنه: «منهج يعمل على اقتفاء أثر الهداية التي أودعها الله تعالى في خلقه وأنطق بها رسله، وتضمنتها كتبهم وما جاؤوا به من رسالات»[2].

بناء على التعاريف السابقة نلاحظ أنها تستند على البعد الهدائي في الخطاب القرآني، وتؤكِّد على دور المفسر في الكشف عن هدايات القرآن، وتوظيف المباحث اللغوية والبلاغية بالقدر الذي يخدم هذا الغرض؛ استجلاءً لأسرار القرآن وسُنَنه في الأنفس والكون والآفاق.

3. التعريف بالشيخ محمد بن إبراهيم سعيد كعباش وبتفسيره «نفحات الرحمان»:

1.3 التعريف بالشيخ محمد بن إبراهيم سعيد كعباش:

يمكن أن نعتبر المصدر الأساس لسيرة الشيخ كعباش المباركة كتابه "رحلة العمر"، الذي وثَّق فيها الشيخ محطات حياته، مع التركيز على جوانب من نشاطه العائلي والتربوي والاجتماعي، كما نجد شذرات من مواقفه مُفرَّقة في بعض مؤلفاته الأخرى؛ ككتاب "جيل النهضة والإصلاح في العطفاء".

1.1.3 نبذة عن حياته:

يعدُّ الشيخ محمد بن إبراهيم سعيد، المعروف بـ (كعباش) أحد رجالات الجزائر الأفذاذ، وعلما من علماء الإباضية المعاصرين بوادي مزاب.

واكب الشيخ كعباش أحداثا جساما؛ عاشتها منطقة وادي مزاب والجزائر سواء ما تعلق بظروف الحربين العالميتين الأولى والثانية، أو بأحداث الثورة المجيدة ومقارعتها للاستعمار الفرنسي، أو في فترة البناء والتشييد للجزائر المستقلة[3]، فكان الجندي الوفي لوطنه، المسابق إلى كل مكرُمة وتعمير وبناء، فشارك بحماس في المجال الديني والفكري والتربوي والاجتماعي، تُحرِّكه نخوته الوطنية، ويسدِّد خطوه ما أوتي من حكمة الراي وصواب النظر.

(1) السيد محمد علي أيازي: المفسرون حياتهم منهجهم، ط1، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران-إيران، 1313هـ، ص49.

(2) مونية طراز: الهدائية في التفسير عند مجددي العصر الحديث. بحث مرقون ضمن مداخلات الملتقى الدولي التجديد في حركات التفسير المعاصرة، أفريل 2024، جامعة أدرار، ص9.

(3) كعباش: رحلة العمر، ط1، مكتبة التوفيق، العطف-غرداية- الجزائر، 1436هـ/2015م، ص6.

ولد محمد سعيد كعباش ببلدة العطف في أفريل 1929م، وهو من عشيرة أولاد باكة بتاجنينت (العطف)، التي تنحدر من عرش أولاد عبد الله أو يحمد[1]. والده الفاضل: سعيد ابراهيم بن باحمد، ووالدته السيد الكريمة: بهون شيخة بنت الحاج محمد من عائلة آل بهون الأماجد[2].

نشأ يتيما ضعيف الحال، ليس معه إلا أختان، توفيت احداهما بعد ذلك، فلم ينعم برقة حنان والده سوى سنتين، فما كان من والدته الكريمة إلا أن شمَّرت عن ساعد الجد لكفالة ولدها مع أختيه؛ مُغالبة متاعب الحياة وضوائقها، معتنية بتربية ولدها، فنشَّأته على الإيمان وحفظ القرآن، الذي ختَمه في سنٍّ مبكرة[3].

التحق بكتاب القرية بجوار مسجد "أبي سالم" في سنٍّ مبكرة، ثم بالمدرسة الفرنسية ببلدته العطف، فنال منها الشهادة الابتدائية[4]، لينقطع بعد ذلك إلى مجال العمل؛ أملا في تخفيف الحمل عن أمه وتحسين ظروفه المعيشية، فاشتغل فترة في مدينة الجلفة ثم الجزائر العاصمة، فبلدة "مسعد"، والتي واتته فيها الفرصة لينضمَّ إلى كتاب الشيخ أحمد بن عبد القادر الزنيني، ويُنعش حنينه نحو طلب العمل والمعرفة[5].

تاق الشيخ كعباش إلى مواصلة التكوين العلمي، خاصة وهو يرى قوافل الطلبة من بلدته تُيمِّم وجهة معهد الحياة، حتى واتته الفرصة عقب زيارة للشيخ بيوض إلى بلدة العطف، فانضم إلى فوج جديد من الملتحقين بالمعهد وذلك في ديسمبر 1945[6].

استطاع الشيخ كعباش بما رزقه الله من مواهب فذة وذاكرة قوية، وجِدٍّ ومثابرة أن يستظهر القرآن الكريم بعد شهرين من التحاقه بالبعثة البيوضية، وأن يتحصل على الدرجة الأولى في الامتحانات طيلة دراسته بالمعهد، وأن يبرز في فضاءات النشاط الثقافي؛ إضافة إلى توليه مسؤولية البعثة العطفاوية بعد 1948م، ما أكسبه مهارات إدارية وتنظيمية[7].

---

(1) المصدر نفسه، ص10.

(2) المصدر نفسه، ص12، 14، 19.

(3) كعباش: رحلة العمر، ص13، 15.

(4) المصدر نفسه، ص20-24؛ نفحات الرحمان، (1/ت).

(5) المصدر نفسه، ص35.

(6) المصدر نفسه، ص45؛ نفحات الرحمان، (1/ح).

(7) المصدر نفسه، ص45-47.

استشرف الشيخ كعباش بعد تخرُّجه من معهد الشيخ بيوض آفاق أرحب للدراسة والمعرفة، وقد كانت تونس الخضراء وقتئذ مورد الارتياد، فقَصَدها في ديسمبر 1950م، وانخرط بحزم في دروس جامع الزيتونة، والمعهد الخلدوني؛ يتزود منهما العلوم الشرعية والأدبية والمواد التطبيقية[1].

اشتغل الشيخ كعباش بعد عودته من تونس صائفة 1954م أستاذا ومديرا في القطاع الديني الحر في فترة الاستعمار، ثم أستاذا في المتوسطات والثانويات بعد الاستقلال الوطني حتى تقاعد سنة 1990م، وقد مَهَر من حياته لبناء النشء وتربية الأجيال ما يقارب خمسة عقود مباركة، مخلّدا مواقف مشرفة ومجهودات مبرورة[2].

استجاب الشيخ كعباش لنداء الثورة المباركة، فكان في طليعة صفوف جبهة التحرير الوطني، وأدى بإخلاص ما اسند إليه من مهام أثناء الثورة التحريرية[3].

2.1.3 إسهاماته الدعوية والاجتماعية:

تتعدَّد مجالات خدمة المجتمع في رحلة حياة الشيخ كعباش، فبعد انخراطه عضوا في حلقة العزابة للمسجد الجامع بالعطف سنة 1958م[4]، تمَّ تكليفه بدءً من سنة 19870م بمهمة إمامة الجمعة ودروس الوعظ والإرشاد والفتوى، فقام بها خير قيام، مخلصا النصح والإرشاد للمؤمنين بما حباه الله من استعدادات فطرية وعلوم شرعية، ببلدته العطف، وخارجها من قصر وادي مزاب.

يقول الشيخ: «ولله الفضل والمنة إذ أقامني على منبر الدعوة إلى الله في المسجد الكبير ببلدة العطف في ولاية غرداية. وذلك منذ أوائل السبعينات، فلم أدَّخر وُسعا في إرشاد المؤمنين والنصح لهم بما يسَّره لي من نفحاته في رياض كتابه العزيز توضيحا وتفسيرا، وفي سنة نبيه توجيها وتنويرا، وعلى منبر الجمعات صلاة وتذكيرا»[5]

(1) المصدر نفسه، ص62؛ نفحات الرحمان، (1/ح). ينظر مواد الدراسة والتكوين بجامع الزيتونة والمعهد الخلدوني، وكذا أسماء المشايخ والأساتذة في كتابه: رحلة العمر، ص61-63

(2) كعباش: نفحات الرحمان، (1/ت). رحلة العمر، ص82، 211.

(3) المصدر نفسه، (1/ت).

(4) كعباش: رحلة العمر، ص98.

(5) كعباش: صوت المنبر من خطب يوم الجمعة الأغر، دط، المطبعة العربية، غرداية -الجزائر، 1994م، (6/1).

امتدت جهود الشيخ كعباش ببلدة العطف وخارجها من قصور وادي مزاب، وأحدثت أثرا طيبا في ترسيخ العقيدة وتعزيز القيم، وتوعية الناس وتفقيههم في أمور دينهم.

3.1.3 آثاره:

تعدُّ أغلب مؤلفات الشيخ كعباش استكمالا لمسيرته في الدعوة إلى الله على منبر المسجد، فقد حمَّل نفسه ثقل تدوين كل ما يلقيه على المنبر من مواعظ وإرشادات بأسلوب تأليفي؛ أملا منه في أن يبقى ذخرا للأجيال، ومادة علمية يفيد منها الدعاة والباحثون[1]، مع مؤلفات أخرى كان الهدف منها توثيق مواقف ومشاهد في رحلة جهاده الدعوي والتربوي، وكذا حفظ تاريخ بلدة العطف ورجالاتها في العصر الحديث، ومن هذه المؤلفات نذكر:

- نفحات الرحمان في رياض القرآن.
- شرح الصدور لتفسير سورة النور.
- من أخلاق القرآن.
- حديث يوم الخميس (شرح الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب)
- صوت المنبر
- حديث الشيخ الإمام في صلاة الجمعة ومالها من أحكام
- صرخات على مسرح المجتمع،
- جيل النهضة والإصلاح في العطفاء بلد النضال والكفاح.
- رحلة العمر.

2.3 وصف تفسير «نفحات الرحمان»:

1.2.3 رحلة الشيخ كعباش مع درس التفسير:

بعد تعيين الشيخ كعباش مرشدا للمسجد الجامع ببلدة العطف، تحمَّل مسؤولية الوعظ والإرشاد، غير أنه لم يقتحم مجال التفسير في بداية الأمر، متمثلا مقولة أبي بكر الصديق: «أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي؟ وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي؟ إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَم»[2]، كما لم يكن يستشهد بآية من القرآن في دروسه الدعوية إلا بعد أن يستوعب معناها ويُطالِع تفسيرها في

(1) كعباش: من أخلاق القرآن الوصايا العشر ووصية لقمان، ط1، منشورات ألفا، الجزائر، 2010م، ص7.

(2) أخرجه سعيد بن منصور عن ابن أبي مليكة، وابن أبي شيبة عن إبراهيم التيمي، والبيهقي عن القاسم بن محمد موقوفا. التفسير من سنن سعيد بن منصور، فضائل القرآن، (168/1)، رقم:39. مصنف ابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن، من كره أن يفسر القرآن، (136/6)، رقم: 30107. البيهقي: شعب الإيمان، (540/3)، رقم:2082.

احدى التفاسير الكبرى، موظفا ملكته العلمة. وما تزوَّد به أيام دراسته بمعهد الحياة وجامع الزيتونة[1].

رأى الشيخ كعباش أن من أوكد واجبته الشروع في تفسير السور القصار، ثم السور التي يتلوها الناس في المناسبات؛ كسورة (يس) وسورة (الأنعام)، وهذا لما لاحظه -بخاصة في فئة النساء- من الجهل بالواجبات الدينية، فأنشط همته من خلال درس للرجال بالمسجد، ودرس للنساء بدار خاصة بهن[2].

أحدثت جهود الشيخ كعباش في تفسير بعض السور أثرا مباركا، فاطمأنت نفسه إلى الشروع في درس التفسير حسب ترتيب المصحف بدء بسورة الفاتحة فالسور الطوال، وهذا منذ 1969م[3]. فكان له في رحاب المسجد درسان دوريان في الأسبوع، دَرسٌ للتفسير وآخر للحديث؛ خصَّه لشرح الجامع الصحيح للإمام الربيع بن حبيب، وبعد تقاعده سنة 1990م أفرد للتفسير يوما آخر، مع ما كان ينفح به جمهور المصلين من دروس في شهر رمضان والأعياد والمناسبات[4].

اطمأنَّ الشيخ كعباش إلى حفظ دروس التفسير والحديث في أشرطة سمعية مرتبة في مكتب المسجد، إلى أن تبيَّن له بداية تَلَفِ بعضها بفعل المناخ الحار بما يذهببنقاء الصوت داخل الأشرطة، مما حزَّ في نفسه ضياع هذا الجهد، فتحركت هِمَّته للشروع في تأليف التفسير؛ وهذا ما ألزمه بذل الجهد مرتين: مرة في درسه المسجدي أمام المصلين، ومرة ثانية حين يتفرغ للدرس تأليفا وتحريرا[5].

نال الشيخ كعباش بركة الشيخ عدون شريفي رحمه الله حين عَرَض عليه أن يكتب له مقدمة الجزء الأول من تفسيره «نفحات الرحمان في رياض القرآن»، أملا منه في استكمال

(1) كعباش: من أخلاق القرآن صفات عباد الرحمان في بيان سورة الفرقان، دط، المطبعة العربية، غرداية-الجزائر. 1419هـ/1998م. ص3.

(2) كعباش: نفحات الرحمان، (1/خ). شرح الصدور لتفسير سورة النور، دط، جمعية النهضة، غرداية -الجزائر، 1428هـ/2007م، ص7.

(3) كعباش: نفحات الرحمان، (1/د).

(4) كعباش: رحلة العمر، ص120، 236.

(5) كعباش: رحلة العمر، ص120؛ نفحات الرحمان، (1/د).

الحلقة غير المسجلة من تفسير الشيخ بيوض[1]، فاستبشر الشيخ عدون بمشروع التفسير المبارك، ودعا له بطول العمر، حتى يكمل التفسير كله[2].

كان لدعاء الشيخ عدون الخالص أثره المبارك في استمرار الشيخ كعباش في درس التفسير بصدق وحماس لما يزيد عن أربعة عقود، واقترابه في خطوات وئيدة نحو تحقيق أغلى أمنية، ترافقه عناية الله وألطافه، فختم تفسير القرآن الكريم في جوٍّ إيماني خاشع يوم الجمعة 01 جمادى الأولى 1436هـ الموافق ليوم 20 فيفري 2015م[3]، وقد انتظم هذا التفسير في سِفْر فَخْم، ضمَّ أربعة عشر جزءً.

استبشرت بلدة العطف وغرداية بختم درس التفسير، وشارك عموم المصلين الشيخ كعباش عبارات الفرحة والشكر لله تعالى على بلوغ التمام، وقد أقيم بالمناسبة مهرجان كبير بتاريخ السبت 21 جمادى الثانية 1436هـ، يوافقه 11 أفريل 2015م، حضرته حلقات العزابة والمشايخ والعلماء وجماهير غفيرة من غرداية ومن مختلف مناطق الوطن.

2.2.3 طريقة الشيخ كعباش ومصادره في تفسيره "نفحات الرحمان":

شرع الشيخ كعباش في درس التفسير متوكلا على الله، عُدَّتُه ما حصَّله من معارف شرعية ولغوية في تكوينه بمعهد الحياة، وما حازه من إجازة في التفسير والحديث من مشايخه في جامع الزيتونة بالسند المتصل إلى التابعين فالصحابة[4].

سار الشيخ كعباش في درس التفسير سيرا منتظما، ابتداء من أمّ الكتاب فالسور الطوال، وهكذا إلى سورة الناس، وقد كَشَف في مقدمة تفسيره عن طريقته في التفسير، وهي على منهجية التفسير التحليلي، نوجزها في المسار الآتي[5]:

- تحديد النّص القرآني لكل حصة تفسيرية، والتي لا يتجاوز وقتها ساعةً من الزمن بين المغرب والعشاء.

(1) كان حفظ تفسير الشيخ بيوض في أسطوانات مسجلة بدءً من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ﴾ [الإسراء:70]، وذلك بعد دخول الكهرباء إلى القرارة في: 28 فيفري1957م. ينظر: محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 1389هـ/1969، (3/77).

(2) كعباش: رحلة العمر، ص280.

(3) كعباش: نفحات الرحمان، (14/541).

(4) المصدر نفسه، (مقدمة المؤلف)، (1/د).

(5) المصدر نفسه، (مقدمة المؤلف)، (1/د-ذ).

- التحقيق اللّغوي لمبنى النص: شرحا لبعض الألفاظ أو الجمل، مع الإشارة إلى أوجه الإعراب والبلاغة.
- بيان ما تضمَّنته الآيات من أوجه القراءات.
- المعنى الإجمالي للآيات: وذلك بالوقوف على أوجه المناسبة بين المقطع والذي سبقه، أو بداية السورة ومناسبتها للتي قبلها، ثم ذكر أسباب النزول، يعقبها بيان الآيات وتفسيرها ومن خلال معاني الآيات، يستخلص عنوان الدرس في جمل قصيرة.

اعتمد الشيخ كعباش في جمع المادة العلمية لدرس التفسير على عدد من كتب التفسير، منها تفسير المنار، والتفسير الكبير للرازي، والكشاف للزمخشري، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي. وإن كان مدار اعتماده على ثلاثة تفاسير حديثة، هي: تيسير التفسير للقطب اطفيش، والتحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، والتفسير المنير لوهبة الزحيلي[1].

2.3 الهدائية عند الشيخ كعباش:

تتأسس الهدائية عند الشيخ كعباش من استشعار عظمة القرآن الكريم، والتي هي مُستمدَّة من عظمة المُنزِّل، ذي الأسماء الحسنى، خالق السموات والأرض، ومُدبِّر الكون كله، يقول تعالى: ﴿لَوَ اَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلاَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:21]

وَقَفَ الشيخ كعباش متأملا صفة البركة التي وصف الله تعالى بها كتابه في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ اَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلاَلْبَٰبِ﴾ [ص:29]، وقوله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ اَنزَلْنَٰهُ مُبَٰرَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [ص:29]، فالبركة هي الخير الكثير، وتتجلَّى في الإرشاد إلى خير الدنيا والآخرة، بما أودع الله في كتابه من المواعظ والأحكام والقَصَص والأمثال، فينتفع بها المؤمنون المهديون به، يقول تعالى: ﴿وَالذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدىً وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:18] [2].

ومن صُور بركة القرآن، التأثُّر بسماعه، فتلك من أخصِّ صفات المؤمنين، وهذا ليس قاصرا على الإنس، فالمؤمنون من الجنِّ يتأثرون بسماع القرآن، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ

(1) كعباش: نفحات الرحمان، (مقدمة المؤلف)، (1/ذ).
(2) المصدر نفسه، (10/98).

إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَۖ ﴾ [الأحقاف:28] [1]، يقول الشيخ كعباش: «وهداية القرآن تَصِلُ إلى شِغاف القلوب المؤمنة المُعَدَّة للتّلقّي عن طريق السّمع بالإنصات والتدبُّر، ويكون التّأثير والتّفاعل بسماعه عن الغير أكثر من قراءته بحاسّة البصر من المصحف وغيره»[2].

يؤكِّد الشيخ كعباش في أكثر من موضع من تفسيره أن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد بالدرجة الأولى[3]، وأنه ﷻ قد امتَنَّ على المخاطبين المكذبين لرسول الله بالتأكيد على أن الله أنزله إليهم؛ لأجل دعوتهم إلى الهدى والرشاد، يقول تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَۖ﴾ [الأنبياء:10]. ففصَّل لهم في آياته من التوجيهات والأحكام ما يحقَّق به سعادة الناس في معاشهم ومعادهم، وبثَّ فيه من الهداية والرحمة ما يُزَكّي به النفوس وُيقَوّم السلوك. يقول في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات:6-7]. وبعد أن أشار إلى تفسيرات علماء الكون لظاهرة الشهب: «وأيًّا كانت تفسيرات علماء الكون لتلك الظاهرة، فإنَّ القرآن ليس كتاب علوم، بل هو كتاب هداية وإرشاد، يوضّح جلائل صنعة الله في الآفاق وفي الأنفس»[4]

من هنا كانت الأولوية الأولى للشيخ كعباش في درس التفسير وسائر مؤلفاته حول بعض السور ربط المؤمن بتوجيهات القرآن، فالقلوب وإن أصابها الصدأ، فإنها تُنيب إلى ربها وتصحُو إلى رشدها؛ وتستجيب لنداءات القرآن يقول تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ﴾ [يونس:57]

ركَّز الشيخ كعباش في تفسيره على أهمية تدبر معاني القرآن، وأن الاكتفاء بتلاوة ألفاظه لا يُحقِّق الهداية المطلوبة، ففي معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ إِخْتِلَٰفٗا كَثِيرٗاۖ﴾ [النساء:81] ذكر عتاب الله على هذه الطوائف المنافقة أو المترددة، وأن فساد تصوُّرها لحقيقة الرسالة مَرَدُّه نظرها السطحي في تفهم

(1) المصدر نفسه، (1/31-32).

(2) المصدر نفسه، (1/30).

(3) المصدر نفسه، (1/32).

(4) المصدر نفسه، (11/349).

معاني القرآن، ثم فَصَّلَ في صُور تدبُّر آياته كأداة لتحقيق الهدائية، فحَصَرها في ثلاث صو، هي[1]:

- التأمُّل في توجيهات القرآن لمختلف الأحكام التي تبين مقاصد الشريعة؛ بما يكفل السعادة للمؤمن.

- الوقوف عند المواعظ والإرشادات الخلقية التي تكفل للمؤمن السلوك النّظيف في حياته الذاتية، والطهر والصلاح في حياته الاجتماعية.

- العناية بإعجاز القرآن، وبلاغته، والمناسبات بين الآيات والسور.

ولابد أن المسلم حين سماعه لإرشادات القرآن، وتلاوة آياته، والتجاوب معها بحسّه الإيماني، سيجد نفسه أمام تجاذب بين مُثُل الدين التي تصدح بها آيات القرآن وبين الواقع المعيش المتردي في الانحراف والتقليد، ومهما كان تأثير الواقع وإغراؤه، فإن المؤمن بسماعه لكلام الله سيتحرك نحو التقوى، يصدق فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [النساء:81] [2].

4. مظاهر التفسير الهدائي عند الشيخ كعباش:

تُجلي صفحات تفسير «نفحات الرحمان» مظاهر عديدة لمنحى التفسير الهدائي، منها: الكشف عن الهدايات من خلال بلاغة القرآن، والوقوف على الهدايات باستخلاص العبر والدروس من الآيات، وتوظيف القصص القرآني للعبرة لا للسرد، وغيرها مما سنفصّله في الفروع الآتية.

1.4 الكشف عن الهدايات من خلال بلاغة القرآن:

اتخذ الشيخ كعباش من بلاغة القرآن وإعجاز نظمه مدخلا لبيان الهدايات الكامنة في آيات الوحي المنزَّل؛ منطلقه في ذلك خصائص اللغة العربية التي نزل بها القرآن، حيث عدَّها أفضل اللغات وأفصحها، وأن وصف الله لكتابه بكونه "عربيا" في قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى ا قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:193-195] إنما هو للمدح والتشريف، ولما حَوَته اللغة العربية من إعجاز وبلاغة لا يتأتَّى في غيرها من اللغات[3]

(1) كعباش: نفحات الرحمان، (250/3).

(2) كعباش: من أخلاق القرآن الوصايا العشر ووصية لقمان، ص6.

(3) كعباش: نفحات الرحمان. (454/8)، (82/10)، (330/12).

حرص الشيخ كعباش على الوقوف على روائع التعبير القرآني، وأثرها في تحقيق الخشية وتعظيم كلام الله تعالى؛ من ذلك إبرازه للخيرية الكامنة في الابتلاء والحيرة التي أصابت النبي وزوجه عائشة في حادثة الإفك، وذلك في معرض بيانه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ جَآءُواْ بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الاثْمِ وَالذِي تَوَلَّ ا كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:11] حيث يقول: «هكذا ينفي الله عن نفوس المسلمين ظنون الشرّ، وما أبلغ التعبير القرآني في استعمال فعل الرّجحان، في ما تكون عليه انفعالات الإنسان، وحسب هذا النفي للشر تعبيرا كافيا في إثبات الخير، ولكن الله تعالى أكّد كون ذلك خيرا بأداة الإضراب؛ ليزيل بذلك كل وهْم يمكن أن يلحق الضّرر بالجماعة المسلمة الحريصة على تقواها وصلاحها»[1].

ومثاله أيضا وقفته عند جملة: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات:11] الواردة في آية الحجرات التي تنهى عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب، حيث نبَّه الشيخ إلى أن الأخلاق الدنيئة لا تُعشِّش أو تُفرِّخ إلا في المجتمعات المتخلفة، التي تسود فيها الأنانية والروح الانفرادية، ومن هنا جاء التعبير القرآني ليبعث معاني الأخوة الإسلامية ويبثَّ الروح الجماعية في المجتمع المسلم، فاعتبر لَمْز النفس الواحدة لمزٌ لنفوس المؤمنين[2].

اهتم الشيخ كعباش بإبراز دقة التعبير القرآني وما تحمله الألفاظ من حمولة ومعاني؛ بما يُحوِّل الكلمات إلى صورة يتمثَّلها قارئ القرآن جَلِية أمام ناظريه، فتزيده رهبة وخشية لله تعالى، ومثاله وقوف الشيخ كعباش عند ورود لفظة "شيء" نكرة من قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ كَفَرُواْ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْئَانُ مَآءً حَتَّى آ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور:38] حيث يقول: «وما أدقَّ التّعبير بهذه النكرة في سياق النفي؛ لتصوير منتهى الخيبة والخسارة في عدم الحصول على الطلب حتى من أدنى الأجزاء الحقيرة منه، وكذلك سعي الكافرين في ظواهر أعمالهم وإن حَسِبُوها مكاسب ضخمة في حياتهم الدنيا وحسبها كذلك الذين يغترون بهم، فسوف لا يجدون عند

(1) كعباش: نفحات الرحمان، (308/9).

(2) المصدر نفسه، (131/13).

انكشاف الغطاء بموتهم إلا الوهم والخيال، كما يجد الظّمآن في جريه وراء السَّراب والآمال»[1].

2.4 الوقوف على الهدايات باستخلاص العبر والدروس من الآيات:

1.2.4 ثمرات الشكر وعاقبة الغرور:

اعتنى الشيخ كعباش في تفسيره بإبراز النماذج القرآنية التي تُصوِّر لنا الشخصية الإنسانية في مختلف الأحوال، من ذلك نموذج الغني الشاكر في شخصية النبي سليمان عليه السلام، الذي أتاه الله عزة الملك وقوة السلطان، فاتخذها سبيلا للدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك؛ مستشعرا أن ذلك ابتلاء من الله تعالى؛ فيرسلها قاعدة خلقية في موقف شكر وتضرع لله تعالى قائلا: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيَ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:41][2].

وأما مثال الاستكبار وجُحُود نعم الله، فصوَّره القرآن في شخص قارون، الذي اغترَّ بماله ومؤهِّلاته، ورفض نصح قومه في استعلاء: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:78]، فأذهب الله ماله، وخسف به وبداره الأرض، وغدا بذلك قارون نموذج الإنسان الذي اختُبر بالخير والعطاء، فأبطرته نعمة المال، وتنكَّر لفضل الله عليه، فتنكب عن الطريق، وخسر في الامتحان، فما نفعه ذكاؤه أو علمه الذي اغترَّ به، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:81]، وفي ذلك تذكير للمسلمين، للاتعاظ والاعتبار بمن سبقوهم[3].

2.2.4 عاقبة الطغاة والظالمين:

تُصوِّر آيات القرآن الكريم مشاهد مُهينة للجبابرة والطغاة، الذين عاثوا في الأرض فسادا، وتجلِّي عن المصير المرعب لهؤلاء يوم القيامة، وهم يقفون أذلَّاء يُسارِقون النظر إلى نار جهنم، وقد تملَّكتهم الحسرة والهوان، يقول تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلِ إِلَى ا مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ * وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:41-42]. كما تبرز الآيات تغيُّر موقف الظالمين بين الدنيا والآخرة، فقد سخروا من

(1) المصدر نفسه، (365/9).

(2) المصدر نفسه، (130/10).

(3) المصدر نفسه، (252/10).

الرسل وكذَّبوهم، واستهزؤوا من عذاب جهنم، ولما عَاينوا موقف الحشر، تمنَّوا في يأس لو عادوا إلى الدنيا لإصلاح حالهم، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ آ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبُ بِئَايَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ [الأنعام:28] [1].

وَقَفَ الشيخ كعباش متأمِّلًا تِكرَار الأمر الإلهي بالسير في الأرض في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وأنَّ الهدف منه تحقيق الاتعاظ والاعتبار بعاقبة الطغاة والمجرمين، وانتقام الله منهم، وبيانُ مصير الأمم اللاحقة إن تنكَّبت عن الطريق، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم:8][2].

ومن سور القرآن التي جاء فيها التذكير بقصص الأمم الخالية المكذبة بالرسل سورة القمر، فبعد أن أجمل الله تعالى في مطلعها أخبار الأمم الماضية؛ تقريعا للمشركين في تعنُّتهم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر:4][3]، فصَّلَ أخبار هذه الأقوام كقوم نوح وقوم هود وغيرهم، وفي ذلك تحذير لمشركي مكة ولكل من لا يرتدع بمشاهد الآيات أنه سيحل بهم الهلاك كما حلَّ بمن قبلهم. يقول الشيخ كعباش: «تتابعت قصص الأقوام الذين أهلكهم الله بعد قوم نوح الذين بدأ الله بهم؛ لشدة إصرارهم على التكذيب بعد طول المدة التي قضاها نوح معهم في الدعوة إلى الله، فذَكَر بعدهم قصة عاد، فثمود، فقوم لوط، وأَلْمَح إلى فرعون وملئه في نهاية المطاف ليُبيّن أن ذلك هو مصير المكذبين من أيّ رهط كانوا إذ لا تفاوت بين الأقوام، ولا محاباة عند الله للظلم والإجرام»[4]

3.4 توظيف القصص القرآني للعبرة لا للسرد:

المتتبع لتفسير الشيخ كعباش يجده في آيات القصص يقف عند حدود ما ذكره القرآن، مقتصرا على ما أجملته الآية، ما لم يرد فيه نص من الكتاب أو السنة، موجها النظر إلى العبرة من القصة. يقول في معرض بيانه لمسألة نزول المائدة أو عدم نزولها: «وهكذا نجد في كتب التّفسير حشدا من أدلة النّافين والمثبتين وردّ كل طرف على الآخر مما لا فائدة من ذكره. غير أننا -نحن المسلمين- نجزِم بقدسية القرءان وهيمنته على الكتب الأخرى فنؤمن

(1) كعباش: نفحات الرحمان. (12/309-310).

(2) المصدر نفسه. (10/340).

(3) المصدر نفسه. (10/340).

(4) المصدر نفسه. (13/291).

بالقصة حسب مدلول ألفاظها كما وردت، آخذين العبرة منها في السّياق الذي نزلت فيه، بدون تأويل مجحف يخرجها عن الغرض المقصود بالقصص القرآني في عمومه»[1].

تساءل الشيخ كعباش في تفسيره عن الغرض من تكرار قصص القرآن وتنوعها في أسلوب فني بديع ما بين إجمال وتفصيل؟ ثم ساق جوابا نقله من كتاب نظرات في القرآن للشيخ محمد الغزالي، وأعقبه بملخص لبحث لمحمد قطب عن أهداف القصة القرآنية، ذكر منها[2]:

- إثبات صدق الوحي المنزل على النبي ﷺ.
- تثبيت قلب النبي فيما يلقاه من قومه، والتخفيف عن الفئة المؤمنة معه.
- بيان وحدة الرسالات السماوية، وهي توحيد الله عزوجل، والتذكير بالانتماء إلى أمة واحدة ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92].
- إبراز تشابه موقف الأقوام من رسل الله؛ إعراضا وتكذيبا، وتهديدا بالأذى للنبي ومن آمن معه.
- ابتلاء المؤمنين وتمحيصهم، وتلك سنة ماضية في الدعوات وحياة الدعاة.

أكَّدَ الشيخ كعباش على أن قصص القرآن إنما جاء تذكرة وعبرة لأولي الألباب، وبيانا لمصائر الأمم حال تماديها في الظلم والطغيان، يقول تعالى مخاطبا النبي ﷺ: ﴿ ذَالِكَ مِنَ اَنْبَآءِ الْقُرَى ا نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ التِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ اَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: 100-101][3]، ففي معرض تفصيله لقصة قارون المذكورة في سورة القصص، ألمح إلى أن هذه القصة وقبلها قصة موسى وهارون مع فرعون وما بينهما من مواعظ وإرشادات إنما جاءت تحذيرا لمشركي مكة وكل كافر جاحد وإنذار لهم من أن يحلَّ بهم ما أصاب الجبابرة قبلهم، وأن في مشاهد القصة ما يردع الطغاة ويزجرهم[4].

كما نجد الشيخ كعباش وعَقِبَ تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قُلَ اَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّواْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 32] يُبرِز مناسبة هذه الآية لما بعدها وهي قوله

(1) المصدر نفسه. (172/4).
(2) المصدر نفسه. (346/6-347).
(3) كعباش: نفحات الرحمان، (417/6).
(4) المصدر نفسه، (247/10).

تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33]، وأن هذه القصص جاءت لتربط بعثة رسول الله وهي مدار إنكار من المشركين بموكب الأخيار من صفوة الخلق من لدن آدم إلى خاتم المرسلين، وتقرر آصرة التآزر بينهم في رفع لواء التوحيد وتحرير البشرية من عبادة الطواغيت إلى عبادة الله وحده، ومحاربة الخرافات، وتُذكِّر أهل الكتاب بعلاقة الأخوة بين أنبيائهم ورسول الله ﷺ[1].

4.4 التذكير بسُنن الله في الأنفس والمجتمعات والآفاق:

1.4.4 جزاء إصلاح النفس وعاقبة إهمالها:

خلق الله الإنسان، وجَبَل النفس الإنسانية التي بين جنبيه على الخير والشّر، والهدى والضّلال، وزوَّده بالعقل، الذي هو مناط التكليف، وأَعلمه بمسؤوليته الفردية عن أعماله يوم القيامة، وعاقبة اختيار ما يقدم عليه من خير أوشر، يقول تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسِم بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: 38]

فصلاح النفس ينبعث من مطلق إرادة الإنسان في اختياره طريق التطهُّر والتزكية، بما يحقِّق له الفلاح دنيا وأخرى، كما أن اختيار طريق التدسية المذكور في قوله تعالى: ﴿قَدَ اَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9-10]، وأنه مسلك نابع عن فعل إرادي من الإنسان، يحمّله تبعة أعماله، ويضعه أمام مسؤولية نفسه، يقول الشيخ: «وكل من التّزكية والتّدسية تنبثق عن فعل إرادي يوجِّه الإنسان إلى تحقيق إحداهما في سلوك عملي يدرك الإنسان نتائجه ويتحمل تبعته، فيحقق لنفسه الفلاح دنيا وأخرى بالتّزكية والعمل الصّالح، ويخيب عند التّدسية باتباع هواه وإشباع شهواته»[2].

2.4.4 التَّرف وانحراف الأخلاق وعدم النهي سبب هلاك الأمم:

اهتم الشيخ كعباش في تفسيره بالإشارة إلى سنن الله في تدبير شؤون البشر، وأسباب إهلاك الأمم؛ لتتعظ منها الفئة المؤمنة، فتلزَم طريق الاستقامة والصلاح، فأثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمُ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الاَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنَ اَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116]، ذكر أن ما أصاب تلك الأمم من الهلاك، مردُّه إلى أمرين:

(1) المصدر نفسه، (275/2).

(2) المصدر نفسه، (409/14-410).

- فقد الفئة الصالحة التي تنهى عن الفساد في الأرض؛ بما يحول دون هلاكهم، واتباع الكثرة الظالمة لشهواتهم.

- إعراضهم عن هدي الرسل وتكذيبها، ووقوعهم في الإجرام، الذي هو بداية الدمار، يقول تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16][1].

كما نجده في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوا۟ كَمَ اَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الاَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: 6][2]. يشير إلى أنَّ سبب الهلاك في أغلب أحوال القرون الخوالي هو الانحراف والانحلال الخلقي، كأثرٍ للترف والنعيم، وفي ذلك تذكرة لمشركي قريش بما حلَّ بأقوام من قبلهم، مكَّن الله لهم، وآتاهم من الخيرات أكثر مما مكَّن للعرب، لعلهم يتَّعظون[3].

3.4.4 مُوالاة الظالمين تفقد المؤمن ولاية الله ونصرته:

وقف الشيخ كعباش مطولا عند مسألة موالاة المؤمنين للظالمين، وذلك حين تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنَ اَوْلِيَآءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ [هود: 113][4]، فبعد أن سَاقَ المعاني اللغوية لألفاظ الآية، ذكر أن القرآن الكريم حوى إرشادات كثيرة تحذّر الفئة المؤمنة من موالاة الكفار والظالمين؛ ولو في المشورة والرأي، وأن عقوبة ذلك في الدنيا انقطاع ولاية الله ونصرته وتأييده للموالين للظالمين، وعقوبة الآخرة عذاب النار.

لم يقتصر الشيخ كعباش على التحذير من موالاة الظالمين، بل كشف عن سبب الركون إليهم، ومماثلتهم، وهو ضعف الإيمان وعدم اليقين بنصر الله تعالى، مما يفضي إلى مداهنتهم والاعتماد عليهم، وفي تلك مفسدة للدين، وإضعاف لهيبة المسلمين[5]؛ لأن موالاة الأعداء ينمّ عن ضعف الإيمان وعدم اليقين بنصر الله. ويتحقق الظّلم في كل من المتولّي من ضعاف المؤمنين والمتولَّى من يهود ونصارى.

(1) كعباش: نفحات الرحمان، (6/436-437).

(2) المصدر نفسه، (6/436-437).

(3) المصدر نفسه، (4/190).

(4) المصدر نفسه، (6/436-437).

(5) المصدر نفسه، (6/430).

5.4 بيان الهدايات عن طريق الدعوة إلى القيم والأخلاق:

يبرز اهتمام الشيخ كعباش بالجانب القيمي والخلقي لآيات القرآن في سلسلة مؤلفاته من أخلاق القرآن"، فإضافة إلى درس التفسير الدوري، فإن الشيخ كان يتخيَّر لجمهور المصلين في رمضان موضوعات جامعة لأصول الدين ومبادئ الأخلاق من مائدة القرآن، فينتخب جملة من سور القرآن التي تعالج قيم الفرد ومشكلات الأسرة كتفسير سورة النور[1]، وصفات عباد الرحمان في أواخر سورة الفرقان، والوصايا العشر في خواتم الأنعام ووصايا لقمان لابنه[2].

وبالعودة إلى تفسير «نفحات الرحمن» نجد الشيخ يستفيض في إبراز هدايات القرآن من خلال الدعوة إلى التحلّي بالقيم والآداب، وبلوغ أعلى مراتب كمالات الأخلاق، فيتوسع في فضلها وثمراتها، ويسوق لها الشواهد من القرآن والسنة، وسنقتصِر في هذا المقام على خلقين، كأنموذج:

1.5.4 خُلُق الاستقامة:

وقف الشيخ كعباش في تفسيره عند معنى لفظة الاستقامة[3]، وذكر أنها كلمة جامعة وشاملة لكلّ ما يتعلَّق بالعقيدة والعمل الصالح والأخلاق الحميدة[4]، وأنها طريق لأداء حق النعمة وشكر المنعم بها سبحانه وتعالى. وقد عرفها بأنها: العمل بأحكام الشّريعة كاملة بحيث لا ينحرف عنها قيد أنملة[5]، كما عرفها في موضع من تفسيره بأنها: إخلاص الطاعة لله، والثبات على طريقه المستقيم عقيدة وقولا وعملا[6].

جاء الخطاب في القرآن آمِرا النبي وأصحابه بالاستقامة في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: 112]. ولما كان النبي في مقام القدوة للفئة المؤمنة، كان الأمر تنويها

(1) اختار الشيخ كعباش لدروس رمضان 1415هـ/1995م تفسير سورة النور على منبر المسجد الجامع ببلدة العطف. كعباش: شرح الصدور تفسير سرة النور، ص8.

(2) القى الشيخ هذه الدروس في رمضان 1418هـ/1988م بالمسجد الجامع ببلدة العطف. كعباش: من أخلاق القرآن الوصايا العشر، ص5.

(3) ذكر الشيخ كعباش المعنى اللغوي للفظة الاستقامة، وأنها عكس الاعوجاج والميل عن الاستواء. ينظر: كعباش: نفحات الرحمان، (359/2).

(4) كعباش: نفحات الرحمان، (429/6).

(5) المصدر نفسه، (428/6).

(6) المصدر نفسه، (218/12).

بمقامه، ودعوة إلى الثبات والاستمرار في سبيل الاستقامة، لا على أنه لم يكن مستقيما قبل ذلك، وحاشاه ﷺ[1].

ونظيره خطاب الله تعالى لسيدنا موسى وأخيه هارون: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 88]، أي اثبُتا ودَاوِمَا على الاستقامة، والزَمَا سبيلا الهدى والرشد والدعوة إلى الله تعالى[2].

تتحقَّق الاستقامة على طريق الله بامتثال أوامره، ومحل العسر في المداومة عليها، ذلك أن الإنسان عرضة لأهواء النفس وإغواء الشيطان، وضغط الواقع وإغرائه، مما يستلزم جهدا خاصا ومتواصلا، ولهذا كان إشفاق النبي كبيرا حين نَزَلَ عليه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: 112]. فعن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: سمعت أبا علي السَّري يقول: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ رُوِيَ عَنْكَ أَنَّكَ قُلْتَ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ» قَالَ: «نَعَمْ »، فَقُلْتُ: مَا الَّذِي شَيَّبَكَ مِنْهُ قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ وَهَلَاكُ الْأُمَمِ؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: 112]»[3][4].

تضافرت آيات القرآن الكريم في بيان ثمرات الاستقامة المادية والمعنوية، ونتائجها الطيبة على المؤمن، فمن الثمرات المادية قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: 17]، ومن الثمرات المعنوية: تنزُّل الملائكة على المؤمنين المستقيمين؛ بما يُحدِث في نفوسهم السكينة والطمأنينة[5].

2.5.4 خُلُق الصبر:

عرَّف الشيخ كعباش خلق الصبر في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَواةِ﴾ [البقرة: 45] بأنه حبس النفس على ما تكره، بحيث تحتمل المكروه بنوع من

(1) المصدر نفسه، (429/6).

(2) المصدر نفسه، (280/6).

(3) أخرجه الترمذي عن ابن عباس، والطبراني عن عقبة بن عامر، والبيهقي عن أبي علي السري بألفاظ متقاربة. سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الواقعة، (402/5)، رقم:3297. الطبراني: المعجم الكبير، (286/17)، رقم: 790. البيهقي: شعب الإيمان، فصل في فضائل السور والآيات، ذكر سورة هود عليه السلام، (82/4)، رقم:2215.

(4) كعباش: نفحات الرحمان، (306/6).

(5) المصدر نفسه، (218/12).

الرضا والاختيار والتسليم، مستدلا بحديث النبي ﷺ: «الصبر نصف الإيمان»[1]. ثم نبَّه إلى أن الباعث على التحلي بالصبر تذكُّر وعد الله ووعيده، والإيمان بقضائه وقدره، واستحضار عظمة الله تعالى والشعور بجلال هيبته؛ فيهدأ بال المؤمن وتسكن نفسه عند نزول المصائب[2].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: 115]، ذكر الشيخ كعباش أن الأمر بالتحلي بخلق الصبر جاء مطلقا في الآية، وهو للنبي ﷺ ولأمته تبعا؛ وهذا ليشمل كل أنواع الصبر، معتبر أن أشد أنواع الصبر ما كان فيه أداء الالتزام بالأوامر واجتناب النواهي؛ بخاصة حين طغيان الباطل وانتشار الفساد، وتعرُّض المؤمن للفتنة في دينه[3].

وقد أشاد القرآن الكريم في آيات عديدة بخلق الصبر، وبوَّأَ الصابرين منزلة المحسنين، ووعدهم بالجزاء الأوفى[4]، يقول تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153].

ساق الشيخ كعباش في تفسيره نماذج من الصابرين؛ قصد تحقيق التأسي والاقتداء، فأثناء بيانه لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]، وقف عند قوة صبر النبي ﷺ وتحمله حين وداعه مكة في حادثة الهجرة، وهو المثل الأعلى للصابرين[5]. كما أفاض الشيخ الحديث في قصة النبي أيوب عليه السلام الذي حاز الشهادة الربانية في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 44]؛ ثناءً على شدَّة صبره والتجائه إلى الله وحده[6].

(1) هو جزء من حديث أخرجه ابن أبي الدنيا عن المغيرة بن عامر، وأبو بكر الخلال وابن الأعرابي وغيرهما عن عبد الله بن مسعود. ابن أبي الدنيا: الشكر، (24/1)، رقم:58. أبو بكر الخلال: السنة، (22/5)، رقم: 1509. معجم ابن الأعرابي، (309/1)، رقم:592.

(2) كعباش: نفحات الرحمان، (118/1)، (32/12).

(3) كعباش: نفحات الرحمان، (434/6).

(4) المصدر نفسه، (118/1)، (32/12).

(5) المصدر نفسه، (32/12).

(6) المصدر نفسه، (472/11).

6.4 ربط هدايات الآيات بالواقع المعاصر:

حرص الشيخ كعباش في تفسيره على إحكام الربط بين النص والواقع، ومحاولة معالجة مشكلاته من صيدلية القرآن، يسنده في ذلك خبرته بالمجتمع وهمومه، فقد عايش فترة الاستعمار، وأدرك بوعي مخططاته لهدم الدين والقيم، ومحاولاته اليائسة في تذويب الشخصية الجزائرية المسلمة، كما عايش فترة ما بعد الاستقلال، وتحديات بناء الدولة المستقلة، فانبرى بلسانه وقلمه يصلح الطباع، ويعالج ما علق في أذهان الناس من عادات وأعراف تتعارض مع كليات الدين وقواعد الشريعة.

حاول الشيخ كعباش في تفسيره «نفحات الرحمان» أن يستبطن المجتمع ويغوص في عمق مشكلاته الأخلاقية والتربوية، كشفا للداء، ووصفا للدواء؛ مسترشدا بمعاني الآيات وإشراقاتها، حريصا على أن تهتدي بهدي القرآن، وتتَّصف بصفات عباد الرحمان.

ومن أمثلة العادات التي انبرى الشيخ لمحاربتها، وتوعية الناس بِخَطَرها، وأنها من مسالك الشيطان ظاهرة التوسُّل بالأضرحة، حيث قال عنها محذِّرا أثناء بيانه لقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:103]: «والإسلام في منهجية تربيته الحكيمة جعل ارتباط المؤمن بالله مباشرة فلا توسُّل بغيره إليه، ومن المؤسِف أن يبتدع كثير من المسلمين ما يشبه تلك العادات الجاهلية في توسُّلهم بأضرحة بعض الأولياء حتى أصبحت مزارات مقدَّسة تخصَّص لها الوَعْدَات، ويتفنَّن بأساليب شيطانية في جمع المريدين والأتباع»[1]

أَثمَر الجهد الدعوي للشيخ كعباش رفقة ثلة من أخيار بلدة العطف في القضاء على هذه العادة الجاهلية، حيث يقول في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنَ اَطَعْتُمُوهُمُ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:121]، وبعد أن سَاقَ قولا للشيخ رشيد رضا: «لقد وفقنا الله تعالى في محاربة الظاهرة التي أشار إليها الشيخ رشيد رضا من ذبح القرابين في ضريح "الشيخ إبراهيم بن مناد" دفين العطفاء من علماء القرن الخامس الهجري. وهو يعتبر من أولياء الله الصالحين في منطقة "ميزاب". إذ كانت هذه الظاهرة حتى

(1)كعباش: نفحات الرحمان ، (145/4).

منتصف هذا القرن العشرين تقام لها مهرجانات شعبية كبيرة يجتمع لها حشد غفير من بلدة العطف ومن قرى وادي ميزاب...»[1].

لم يقتصر جُهد الشيخ كعباش على معالجة المشكلات الأخلاقية والاجتماعية لمجتمعه، بل جاوز ذلك إلى رصد المشكلات الفكرية الوافدة، وسَارَع إلى التحذير منها، والتنبيه على آثارها؛ بخاصة ما يستهدف فئة الشباب من خلال وسائل الإعلام والتكنولوجيا الحديثة، حيث نجده في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى ا عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدِ اِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم:29] يشير إلى ما بَلَغَه العلم المادي من تطوُّر مذهل، ويؤكِّد أن حقائق القرآن تُقرِّر أن أربابه لا يعلمون إلا ظواهر الأشياء، محجوبين عن أسرار العقيدة والدين؛ محذرا الشباب المسلم من الاغترار بالعلم المادي المحض، أو تصديق شبهة من يعتبر العودة إلى تعاليم الإسلام وحضورها في الحياة المعاصرة تخلفا ورجعية[2].

ومن القضايا التي تعرَّض لها الشيخ أثناء تفسيره، ووقف منها موقف الناقد البصير مقاربة القراءات الحداثية للقرآن الكريم، حيث ساق مقولة أبي بكر الصديق: «أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي؟ وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي؟ إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَم»[3]، ثم عقَّب عليها في تساؤل وحيرة: «أين من هذه الأخلاق العالية ما نشاهده اليوم من الجرأة على كتاب الله والخوض في أحكامه ممّن لا يتوفَّر فيهم الزّاد المعرفي لعلوم القرآن، ولم تنْحنِ أصلابهم أمام شيوخ التّفسير، ولم يكلّفوا نفوسهم عناء البحث والدراسة بدءًا بحفظ كتاب الله وممارسة تلاوته بإحدى القراءات المتواترة على الأقل، حتّى لكأنَّ القرآن كبقيَّة الكتب الأدبيّة، حسبُه أن يُلقي عليه نظرة عابرة ليعرف قيمته شكلًا ومضمونًا، وحسب هؤلاء من الوعيد قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُّجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ، ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُ, فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ, يَوْمَ القِيَامَةِ عَذَابَ الحَرِيقِ﴾ [الحج:8 – 9] [4]

أفادت جهود الشيخ كعباش الدعوة والاجتماعية، وعمق اتصاله بالناس مخالطة ومجالسة وصلحا بين المتخاصمين خبرة واقعية عميقة، أتاحت له الوقوف عن قرب على أخلاق الناس

(1)كعباش: نفحات الرحمان ، (369/4).

(2) المصدر نفسه، (257/13-258).

(3) سبق تخريجه.

(4) كعباش: نفحات الرحمان، (19/1).

وتعاملاتهم وعلاقات بعضهم ببعض، وتوجيههم بالطرق المثلى التي تحقق الاستجابة، منطلقه في ذلك ما توحي به آيات القرآن من هداية وإرشاد وتربية، ففي معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمُ إِلاَّ مَنَ اَمَرَ بِصَدَقَةٍ اَوْ مَعْرُوفٍ اَوِ اِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:114] يقف الشيخ عند دعامات الإصلاح بين الناس، ويُنبّه عليها تنبيه رجل المجتمع والميدان، الخبير بقواعد نجاح الوساطة والصلح، فيؤكّد على خلق السرية وأثرها في احتواء النزاعات حيث يقول: «الإصلاح بين النّاس: على ما يترتب عليه من الخير العميم والأجر الجزيل فإنه يحتاج هو الآخر إلى التستُّر والكتمان سيما عند محاولة تطويق المشكل المتنازع عليه ليبقى محصورا بين المعنيين بالأمر حتى لا تكشف أسرار النّاس وتحفظ كرامتهم. وذلك أفيد في تهدئة العواطف الجموحة واستئناس النفوس الشرودة»[1].

5. خاتمة:

أحمد الله تعالى وأثني عليه أن وفقني لإعداد هذا المقال العلمي، وفي خاتمته أُسجِّل النتائج الآتية:

1. يعدُّ الشيخ محمد سعيد كعباش أحد علماء الإباضية المعاصرين بالجزائر، وممن كانت لهم بصمات خالدة ومواقف مشرفة في فترة مقاومة الاستعمار الفرنسي، أو في مرحلة البناء والتشييد بعد الاستقلال، من خلال الجهاد التربوي والإصلاح الاجتماعي.
2. اعتنى الشيخ كعباش بعلم التفسير، كامتداد لمسار شيخه الإمام إبراهيم بيوض، فأثرى المكتبة الإسلامية بمؤلفات عدة، منها: تفسيره الكامل للقرآن «نفحات الرحمان في رياض القرآن»، شرح الصدور لتفسير سورة النور، من أخلاق القرآن، وغيرها.
3. كان لتفسير نفحات الرحمان للشيخ كعباش أثره المبارك في تحقيق هدايات القرآن، وتزكية النفوس، وإصلاح المجتمع وبناء النهضة، من خلال جملة مظاهر للتفسير الهدائي، هي: الكشف عن الهدايات من خلال بلاغة القرآن، الوقوف على الهدايات باستخلاص العبر والدروس من الآيات، توظيف القصص القرآني للعبرة لا للسرد،

(1) المصدر نفسه، (318/3).

التذكير بسنن الله في الأنفس والمجتمعات والآفاق، وبيان الهدايات عن طريق الدعوة إلى القيم والأخلاق، وربط هدايات الآيات بالواقع المعاصر.

4. أوصي بمواصلة البحث في الجانب التفسيري عند الشيخ كعباش من خلال تتبُّع مؤلفاته الأخرى في حقل الدراسات القرآنية، بما يساعد على الوصول إلى بنية شمولية للمنهج الهدائي في مؤلفاته.

وأوصي أيضا بأهمية استثمار مؤلفات علماء الجزائر ممن سلكوا منهج التفسير الهدائي والإصلاحي في مجال الدعوة والإرشاد والتأليف المدرسي بما يرسِّخ الإيمان ويبني القيم ويعزِّز المرجعية.

6. قائمة المراجع:

1. - القرآن الكريم. رواية ورش عن نافع

2. رشيد رضا محمد بن علي (ت:1354ه). تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار). دط. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر. 1990م.

- كعباش، محمد بن إبراهيم سعيد.

3. رحلة العمر، ط1. مكتبة التوفيق. العطف-غرداية- الجزائر. 1436ه/2015م.

4. نفحات الرحمان في رياض القرآن. دط. جمعية النهضة. غرداية- الجزائر. 1424-1436ه/2003-2015م.

5. ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد (ت:281ه): الشكر. تح: بدر البدر، ط3، المكتب الإسلامي، الكويت، 1400ه/1980م.

6. ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي (ت:235ه): الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تح: كمال يوسف الحوت، ط1، مكتبة الرشد، الرياض – السعودية، 1409ه.

7. ابن الأعرابي، أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد (ت:340ه): معجم ابن الأعرابي، تح: عبد المحسن الحسيني، ط1، دار ابن الجوزي، السعودية، 1418ه/1997م.

8. ابن عاشور. محمد الطاهر: التحرير والتنوير، دط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984ه

9. ابن عطية أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي (ت:542ه): المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1422ه.

10. ابن فارس أبو الحسين أحمد (ت:395ه): معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دط، دار الفكر، دم، 1399ه/1979م.

11. أبو بكر الخلال، أحمد بن محمد بن هارون (ت:311ه): السنة، تح: عطية الزهراني، ط1، دار الراية، الرياض، 1410ه/1989م.

12. الأصفهاني الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد (ت:502ه): المفردات في غريب القرآن، تح: صفوان عدنان الداودي، ط1، دار القلم، الدار الشامية ، دمشق-بيروت، 1412ه.

13. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (ت:458ه): شعب الإيمان، تح: عبد العلي عبد الحميد حامد، ط1. مكتبة الرشد، الرياض – السعودية؛ الدار السلفية. بومباي، الهند، 1423ه/2003م.

14. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر (ت:685ه): أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي. ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، 1418ه.

15. بيُّوض إبراهيم بن عمر (ت:1401ه): في رحاب القرآن، ط2، جمعية التراث، القرارة-الجزائر، 1430ه/2009م.

16. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (ت:279ه): سنن الترمذي، تح: أحمد محمد شاكر وآخرون، ط2، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1395ه/1975م.

17. دبوز، محمد علي (ت:1402ه): نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 1389ه/1969م.

18. الزرقاني محمد عبد العظيم (ت:1367ه): مناهل العرفان في علوم القرآن، ط3، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، دت.

19. الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (ت:794ه): البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، مصر، 1376ه/1957م.

20. الزمخشري جار الله، أبو القاسم محمود بن عمرو (ت:538ه): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، 1407ه.

21. سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني، أبو عثمان (ت:227ه): التفسير من سنن سعيد بن منصور، تح: سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، ط1، دار الصميعي للنشر والتوزيع، 1417ه/1997م.

22. السيد محمد علي أيازي (معاصر): المفسرون حياتهم منهجهم، ط1، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران-إيران، 1313ه.

23. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (ت:360ه): المعجم الكبير، تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط2، مكتبة ابن تيمية، القاهرة – مصر، دت.

- كعباش، محمد بن إبراهيم سعيد:

24. شرح الصدور لتفسير سورة النور، دط، جمعية النهضة، غرداية -الجزائر، 1428ه/2007م.

25. صوت المنبر من خطب يوم الجمعة الأغر، المطبعة العربية، غرداية -الجزائر، 1994م.

26. من أخلاق القرآن صفات عباد الرحمان في بيان سورة الفرقان، دط، المطبعة العربية. غرداية-الجزائر. 1419ه/1998م.

27. من أخلاق القرآن الوصايا العشر ووصية لقمان، ط1، منشورات ألفا، الجزائر، 2010م.

مونية طراز (معاصر): الهدائية في التفسير عند مجددي العصر الحديث، بحث مرقون ضمن مداخلات الملتقى الدولي التجديد في حركات التفسير المعاصرة، أفريل 2024، جامعة أدرار.